العدد 14 مجلة دراسات في الإنسانيات والعلوم التربوية تموز 2026
No. 14 Journal of Studies in Humanities and Educational Sciences July 2026
Print ISSN 3006-3256 Online ISSN 3006-3264

السياق وأثره في كتب الوجوه والنظائر

باسم خلف ساجت

ملخص:

السياق من أهم الموضوعات التي بحث فيها علماء اللغة قديمًا وحديثًا من العرب وغيرهم, وبينوا أنَّ للكلمة معانٍ متعددة يمكن أنْ تفهم بحسب السياق الواردة فيه, وأنَّ للسياق أثرًا كبيرًا في بيان اعجاز اللفظ, ودلالاته المتعددة التي يجب أنْ تفهم ضمن ما وردت فيه من نص محدد؛ فكانت جهود علماء العربية كبيرة في هذا المجال وخصوصًا في باب ما يسمى بالمعجمات الخاصة, وهي كتب الوجوه والنظائر التي بينت أنَّ للقرآن سياقًا خاصًا في اختيار الألفاظ؛ إذْ لا دلالة محددة للفظ, أو الكلمة خارج السياق, وأنَّ للكلمة نظائر متعددة, ووجوه مختلفة من المعاني.

الكلمات المفتاحية: السياق, الوجوه, النظائر.

The Context and its Impact on books of Faces and Synonyms

Basim Khalaf Sachit

Context is one of important topics that linguists , both ancient and modern Arab and non Arab , have researched . They have shown that a word has multiple meanings that can be understood according to the context has a significant impact on revealing the miraculous nature of the word and its multiple connotations, which must be understood within the specific text in which it appears . The efforts of Arabic scholars in this field were considerable , especially in the area of what are called specialized dictionaries ,which are books of synonyms and homonyms . These books demonstrated that the Quran has a unique context in its choice of words , as a word or phrase has no specific meaning outside of its context , and that a word has multiple synonyms and different facts of meaning .

Keywords ; context . faces , synonyms.

مقدمة

إنَّ للسياق أثرًا في اختيار المفردة التي تؤدي المعنى خيرَ أداء, ويظهرُ ذلك على مستوى اللفظ, أو الصيغة باختيار لفظ, أو صيغة في موضع ما, واختيار لفظ آخر, أو صيغة أُخرى في موضع مشابه, أو اختيار لفظ, أو صيغة من بين ألفاظ, أو صيغ قد تبدو متشابهة, أو متقاربة في معانيها.

فاذا نظرنا إلى القرآن الكريم وقد بلغ ذروة الفصاحة, والبلاغة فهو معجزٌ في شكله ومضمونه, ومن أبرز دلائل اعجازه ودقته العجيبة في اختيار الألفاظ فكل لفظ وضع في مكانه المناسب في بناء محكم متماسك بحيث لا يمكن أنْ يستبدل لفظ بآخر, ولو حصل ذلك لاختل المعنى وتشوه البناء.

وقد دفع هذا الاعجازُ العلماءَ العرب إلى البحث في أسرار اعجاز القرآن الكريم, فتوصلوا إلى أنَّ القرآن الكريم معجزٌ في اختيار ألفاظه, وبينوا أثر السياق في اختيار الألفاظ, وتوجيه المعاني, فعبد القاهر الجرجاني (ت 471ه) يرى أنَّ لكل نوع من المعني نوعًا من اللفظ, وهو به أخص وأولى, وضروبًا من في العبارة هو بتأديته أقوم, ويرى أنَّ اللفظة لا يحكم عليها إلَّا من خلال السياق, لأنَّ الألفاظ لا تفيد حتى تؤلف ضربًا خاصًا من التأليف, ويعمدُ بها إلى وجه دون وجه من التركيب والترتيب[1].

إنَّ ظاهرة اختيار اللفظ المناسب للسياق في القرآن الكريم ظاهرة شائعة تشمل كل لفظ, ولا يمكن أنْ يحيط بها بحثٌ مهما كان واسعًا ودقيقًا فللقرآن خصوصية معجزة في انتفاء اللفظ الذي يتفرد بمعنى خاص, وسياق خاص, وقد شهد التتبع الدقيق لألفاظ القرآن واستقراء دلالتها في سياقها بأنَّ القرآن يستعمل اللفظ بدلالة محددة[2].

ويمكن القول بأنَّ أهمية السياق تكمن في أنَّه يقوم في أحيان كثيرة بتحديد الدلالة المقصودة من الكلمة في جملتها, ومن قديم أشار العلماءُ إلى أهمية السياق أو المقام, وتطلبه مقالًا مخصوصًا يتلاءم معه, وقالوا عبارتهم الموجزة الدالة "لكل مقام مقال"

كما أنَّ الكلمة لا معنى لها خارج السياق الذي ترد فيه وربما اتحد المدلول واختلف المعنى طبقًا للسياق الذي قيلت فيه العبارة, أو طبقًا لأحوال المتكلمين, والزمان والمكان الذي قيلت فيه.

وللسياق أهمية في التفريق بين معاني المشترك اللفظي, فالتحديد الدقيق لدلالة هذه الألفاظ إنَّما يرجع إلى السياق, كما تتركز أهمية سياق الحال, أو المقام في الدرس الدلالي في فوائد منها: الوقوف على المعنى, وتحديد دلالة الكلمات[3].

وأمَّا على مستوى التراكيب فأهمية السياق في الوصول إلى المعنى النحوي الدلالي فظاهرة حين لا تكون للعلاقة النحوية ميزة في ذاتها, ولا للكلمات المختارة ميزة في ذاتها, ولا لوضع الكلمات المختارة في موضعها ميزة في ذاتها ما لم يكن ذلك كله في سياق ملائم[4], وهي التي تستمد من نظام الجملة وترتيبها, وقد تكتسب الدلالة النحوية تحديدًا, وتبرز جزءًا من الحياة الاجتماعية والفكرية عند ما تقع في سياق معين من التركيب الاسنادي, وعلاقته الوظيفية[5].

المبحث الأول: أولًا: الدلالة السياقية والمشترك اللفظي

يعرف المشترك اللفظي بأنَّه " اللفظ الواحد الدال على معنيين مختلفين فأكثر دلالة على السواء عند أهل تلك اللغة"[6] وحده ابن فارس: "وتسمى الأشياء الكثيرة بالاسم الواحد، نحو: عين الماء, وعين المال, وعين السحاب"[7].

اهتم علماؤنا القدامى بهذه الظاهرة وألفوا فيها, ولعل أول من ألف فيها مقاتل بن سليمان اللغوي (ت 150ه), ولعل كتب "نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر" من أشهر الكتب في تناول هذه الظاهرة فقد تناولها ابن الجوزي (ت 597ه) بإسهاب[8].

ومن لغوينا من أنكر الاشتراك وعدَّه مدعاة للبس والتعمية بدلًا من الابانة والوضوح –ابن درستويه (ت 347ه), ويوضح الاشتراك بإشارته إلى أسباب وقوعه, فيقول: "فلو جاز وضع لفظ واحد، للدلالة على معنيين مختلفين، أو أحدهما ضد للآخر، لما كان في ذلك إبانة، بل كان تعمية وتغطية. ولكن قد يجيء الشيء النادر من هذا لعلل"[9].

يقول أحد الباحثين المحدثين: إنَّ من يتوهم أنَّ الاشتراك في اللغة يؤدي إلى الابهام والغموض يجهل دور السياق وقرائنه فالاشتراك لا يخلُ بالتفهيم مادامت قرائن السياق توضح المراد, وتكشف الدلالة إلَّا إذا كان الكلام خاليًا من كل قرينة توضح معناه أو ترشد إليه أو أراد به واضعه الغموض من دون أنْ يترك لنا دليلًا على دلالته أو المراد من كلامه عندئذ يعجز السياق عن رفع مثل هذا الغموض الذي يعتري الكلام إنَّ الكلمة خارج السياق لها معان متعددة وفي السياق دلالة محددة[10].

ثانيًا: دور السياق في وضوح المشترك

إنَّ السياق هو الذي يخصص المشترك ففي قوله تعالى: ﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَآ أَسۡلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡأَيَّامِ ٱلۡخَالِيَةِ﴾[11] ويدل الفعل من خلال السياق على الأكل, وهذا هو الاستعمال الحقيقي له, وفي قوله تعالى: ﴿ثُمَّ

يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ﴾[12] استعمل الفعل استعمالًا مجازيًا فهو مشترك الدلالة لدلالته في هذه الآية على القحط والسياق هو الذي وضع لنا المعنى وحدد الدلالة, فأين الصعوبة التي يدعيها بعضهم[13].

السياق هو الذي يفرض قيمة حضورية واحدة بعينها على الكلمة على الرغم من المعاني المتنوعة المتكاثرة التي في وسعها أنْ تدل عليها, والسياق هو الذي يخلص الكلمة من الدلالات الماضية التي تدعها الذاكرة تتراكم عليها, وهو الذي يخلق لها قيمة حضورية ويتم ذلك من خلال الاستعمال, أمَّا إذا أُهمل السياق أو أُغفل جزءٌ من أجزائه فإنَّه يحدث الغموض في الكلمات المستعملة[14].

المبحث الثاني: السياق عند العلماء

أولًا: السياق عند اللغويين المحدثين

تعد نظرية السياق عند اللغويين الغربيين حجر الأساس في المدرسة اللغوية الاجتماعية التي أسسها "فيرث" في بريطانيا, والتي وسع فيها نظريته اللغوية بمعالجة جميع الظروف اللغوية لتمديد المعنى ومن ثم حاول اثبات صدق المقولة بأنَّ المعنى وظيفة السياق.

وعلى الرغم من ظهور العديد من المدارس والمناهج اللغوية الغربية لدراسة المعنى لم تستطع هذه المناهج التي ظهرت قبل مدرسة فيرث أنْ تقدم لنا فكرة السياق بالمفهوم الذي تحدد على يديه, واصبحت نظرية دلالية متكاملة الجوانب, إذْ أخذ اللغويون الاجتماعيون على علم اللغة الحديث إغفاله للسياق الذي تستعمل فيه اللغة, ويتطلعون من وراء ذلك إلى منهج في درس اللغة يستشرفها من خلال بعد أوسع, ويحاول أنْ يتبين كيف تتفاعل اللغة مع محيطها[15].

كما لم تسلم نظرية النحو التحويلي التوليدي التي ظهرت في النصف الثاني من القرن الماضي على يد رائدها الأول نعوم تشومسكي من الانتقاء, لأنَّها لم تحفل في بدايتها الأولى, وأُصولها بالسياق.

وينقسم السياق عند علماء اللغة الغربيين وعلى رأسهم فيرث إلى السياق اللغوي, والسياق الموقفي, وقد أضاف إليها أحد أتباعه وهو جونز لاينز السياق الثقافي[16].

أمَّا عناصر سياق الحال فقد رأى فيرث أنَّها جزء من أدوات عالم اللغة, ولهذا اقترح الاعتناء بالعناصر الآتية:

- الملامح الوثيقة بالمشتركين, كالأشخاص, والخصائص الذاتية المميزة للحدث الكلامي, أو غير الكلامي لهؤلاء المشتركين.
- الأشياء ذات الصلة بالموضوع والتي تفيد في فهمه.
- تأثيرات الحدث الكلامي.

أمَّا اللغويون المحدثون العرب فقد بدأ اهتمامهم بدراسة السياق بتأثير واضح من نظرية فيرث السياقية, لأنَّهم تلقوا هذا العلم على يديه بشكل مباشر أو غير مباشر, ومن أمثلة هؤلاء الدكتور تمام حسان, والدكتور كمال بشر, والدكتور محمود السعران, وغيرهم ويظهر ذلك في مؤلفاتهم[17].

ثانيًا: السياق عند البلاغيين

انصب اهتمام البلاغيين في دراستهم للسياق عللا فكرة مقتضى الحال, والعلاقة بين المقام والمقال فأمَّا مصطلح "مقتضى الحال" فقد اهتم به علماء علم المعاني, والحالُ في اصطلاحهم يعدل مقتضى الحال, فمن الواضح أنَّ أهل علم المعاني اهتموا بأحوال المتكلم والمستمع, والتعريف يقتضي أنْ يكون المتكلم على علم بأحوال السامع قبل أنْ يتكلم حتى يأتي بالكلام على صفة مخصوصة تتطابق مع حال المستمع.

وإذا ما نظرنا إلى المقال على أنَّه يمثل السياق اللغوي فإنَّنا نجد أنَّ البلاغيين قد أولوه عناية كبيرة, وليس أدلُ على ذلك من ربط العلاَّمة عبد القاهر الجرجاني (ت 471ه) فصاحة الكلمة بسياقها اللغوي, والتركيب الذي قيلت فيه حيث يقول: "وجملةُ الأمر أنَّا لا نُوجِبُ الفصاحَة لِلْفَظةٍ مقطوعةٍ مرفوعةٍ من الكلام الذي هي فيه، ولكنَّا نُوجِبُها لها موصولةً بغيرها، ومعلَّقاً معناها بمعنى ما يَليها، فإذا قلنا في لفظه "اشتعل" مِنْ قولِه تعالى: ﴿ وَاشْتَعَلَ الرَّأسُ شَيْبًا﴾[18] إنَّها في أعلى المرتبةِ من الفصاحة، لم نُوجِبْ تلك الفصاحةَ لها وحَدْها، ولكِنْ موصولاً بها "الرأس" معرَّفاً (بالألف واللام) ومَقْروناً إليهما (الشيبُ) منكَّراً منصوباً"[19], ويقول في موضع آخر: " فقد اتَّضحَ إذن اتَّضاحاً لا يَدَعُ لِلشكِ مجالاً، أنَّ الألفاظَ لا تتفاضَلُ من حيث هي ألفاظٌ مجرَّدة، ولا من حيثُ هي كلمٌ مفردةٌ، وأن الفضيلة وخلافها، في ملائمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها4، وما أشبهَ ذلك، مما لا تَعلُّقَ له بصريحِ اللفظ"[20].

وإذا نظرنا إلى المقام على أنَّه يمثل سياق الموقف وجدنا ذلك أيضًا واضحًا عند البلاغيين فهذا عبد القاهر الجرجاني يربط الكلام بمقام استعماله, وهو لبُّ دراسة المعنى اللغوي عنده, ومنبثق من نظريته للنظم[21], ويرى الدكتور كمال بشر أنَّ البلاغيين قد وفقوا في إدراك شيء مهم في الدرس اللغوي وهو المقام, ولكنهم كعادتهم طبقوه بطريقتهم الخاصة لقد كانت عنايتهم في المقام موجهة نحو الصحة والخطأ أو نحو الجودة وعدمها, ولهذا كانت نظرتهم إلى المقام أو مجريات الحال, أو يسميه هو المسرح اللغوي نظرية معيارية لا وصفية[22].

وبذلك يختلف المقام عند البلاغيين عن سياق الموقف عند المحدثين أضف إلى ذلك أنَّ المقام عند البلاغيين معيار جمالي, أي يحكم بمراعاته ببلاغة المقال وبعدم مراعاته البلاغة, وبهذا يكون النحاة أقرب إلى مفهوم سياق الحال, أو الموقف من البلاغيين.

ثالثًا: السياق عند الأصوليين

اعتمد علماء علوم القرآن والمفسرون في دراسة النص القرآني وفهم دلالته على جانبي السياق: اللغوي الكلي, أو ما يسمى بسياق النص وسياق الموقف, إذ نظروا إلى الآية القرآنية, أو مجموعة الآيات على أنَّها جزء من نص متكامل هو القرآن, ومعنى ذلك أنَّهم لا يعتمدون على السياق اللغوي الجزئي المتمثل في الآية الواحدة, أو مجموعة الآيات المعزولة عن سياقها الكلي[23], واهتموا بعنصر آخر مكمل للسياق اللغوي في النص القرآني وهو القرآءات القرآنية, كما أفردوا المؤلفات لعلم الوقف والابتداء, وكيفية الوصل والفصل وما يترتب على ذلك من دلالات وهي من عناصر السياق اللغوي, ويتمثل سياق الموقف عندهم فيما عُرف بـ "أسباب النزول" فقد اعتنوا بمعرفة أسباب النزول لآيات النص القرآني, لأنَّها تعينهم على فهم معانيه[24].

وأمَّا علماء أُصول الفقه فقد اعتمدوا على فكرة السياق في بيان المعنى في النصوص الشرعية, إذْ يعد اللجوء إلى قرائن السياق من وسائلهم لتحديد المعنى, وقد وعوا تمامًا أنَّ ثمة نوعان من القرائن السياقية: الأولى: القرائن اللفظية, والثانية: القرائن المقامية, وفهموا الأثر الذي تقوم به هذه القرائن في تحديد دلالة النص[25].

رابعًا: السياق عند النحاة

إنَّ كلمة السياق من الألفاظ التي استخدمها القدامى من النحاة بمدلولها اللغوي العام, ولم تكن تحملُ المفهوم الاصطلاحي الذي أصبح عليه فيما بين علماء اللغة المحدثين وبخاصة الدلاليون منهم.

وحولَ اهتمام النحاة بالعوامل الاجتماعية في اللغة يقررُ الدكتور كمال بشر أنَّهم لم يقتصروا على النظر في بنية النص اللغوي, كما لو كان شكلًا منعزلًا عن العوامل الخارجية التي تلفه وتحيط به, وإنَّما أخذوا مادتهم اللغوية على ما يبدوا من معالجتهم لها على أنَّها ضربٌ من النشاط الانساني[26].

وإذا تأملنا آراء سيبويه (ت 180ه) كما يتضح ذلك في كتابه نرى أنَّه من أوائل النحويين الذين اعتمدوا على السياق اللغوي في دراسته للتراكيب النحوية فقد أولى سيبويه – رحمه الله – السياق اللغوي, وسياق الحال اهتمامًا كبيرًا, ويمكن بيان بعض عناصر السياق اللغوي, وسياق الحال عنده مع بيان أثر هذين السياقين في معاني التراكيب من حيثُ الذكر والحذف, أو التقديم والتأخير, أو التوجيه النحوي والحكم بصحة التركيب, أو احالته, يتضح ذلك من استعانته بـ "السياق اللغوي" بكثرة في أحد العناصر المحذوفة في التركيب, فمن ذلك الاستغناء عن تكرار "كل" في قول الشاعر:

" أكُلَّ امرئٍ تَحْسَبِينَ امْرَأَونارٍ تَوَقَّدُ باللَّيْلِ نارَا

فاستغنيتَ عن تثنية كل لذكرك إيَّاه في أوّل الكلام ولقلّة التباسِه على المُخاطَبِ"[27], كما اهتم سيبويه بجميع عناصر السياق فقد اهتم أيضًا بعناصر السياق غير اللغوي, أو الحال كما يسميه بنفسه, كالمتكلم, والمخاطب, والعلاقة بينهما, وموضوع الكلام, وأثر الكلام, والحركة الجسمية المصاحبة للحدث الكلامي, وغير ذلك من العناصر غير اللغوية المُصاحبة للكلام المنطوق, فمن أمثلة اهتمامه ببيان العلاقة بين المتكلم, والمخاطب, وما ينتظره المخاطب من المتكلم أنَّ المتكلم إذا قلت: "كان زيدٌ فإنَّ المخاطب ينتظر الخبر"[28], وإذا قلتَ "كان حليماً فإنَّما ينتِظُر أن تعرفه صاحب الصفة"[29].

ويهتم سيبويه ببيان الحال المصاحبة للتركيب, أو ما يسمى بملابسات المسرح اللغوي[30], وما يترتب على ذلك من المفاضلة بين التراكيب, أو الحكم على العبارة بالحسن, أو الاحالة الدلالية, كما في قوله: "وذلك أنَّ رجلًا من إخوانك ومعرفتك لو أراد أن يخبرك عن نفسه أو عن غيره بأمر فقال: أنا عبد الله منطلقا، وهو زيد منطلقا كان مُحالاً؛ لأنه إنما أراد أن يخبرك بالانطلاق ولم يقل هو ولا أنا حتى استغنيت أنت عن التسمية، لأن هو وأنا علامتان للمضمَر، وإنما يضمِر إذا علم أنك عرفت من يعنى. إلا أن رجلا لو كان خلفَ حائط، أو في موضع تجهله فيه فقلت من أنت؟ فقال: أنا عبد الله منطلقا في حاجتك، كان حسنا"[31], فإنَّما حكم سيبويه على التركيب "أنا عبد الله منطلقًا, وهو زيدٌ منطلقًا" بالإحالة على الرغم من أنَّه من وجهة النظر النحوية صحيح استنادًا على ما أراده المتكلم من معنى؛ لأنَّه إنَّما أراد أنْ يخبرك عن نفسه, أو غيره بالانطلاق, فكأنَّ حقه أنْ يقول: "أنا منطلقٌ", و "هو منطلقٌ"؛ لأنَّك لا تضمرُ, فتقول: "أنا", أو "هو" حتى تكون معروفًا فتستغني عن قولك: "عبد الله", أو "زيدٌ".

وأمَّا عن علاقة سياق الحال عند سيبويه بقرينة التضام, وتسويقه لحذف أحد عناصر الجملة؛ فهذا ممَّا كثرت أمثلته عنده, إنَّ اشارات سيبويه الذكية, والرائدة في هذا الباب تجعله سباقًا لأحدث الاتجاهات اللغوية في زماننا؛ إذْ لم تفقه العناية بأثر الحركة الجسمية, وعناصر الموقف المستمدة من الحواس الخمسة في بنية التركيب, ودلالته من حيث حذف أحد عناصر التركيب استنادًا إلى تلك العناصر الحالية, وهو ما ينجلي من المثال الآتي: أجاز سيبويه _ رحمه الله_ حذف الكاف من اسم الفعل "رويدك" استغناءً بعلم المخاطب أنَّه لا يعني غيره[32].

المبحث الثالث: أولًا: علم الوجوه والنظائر

سارت دراسة المتعدد الدلالي في علوم العربية في مسارين: أحدهما يعنى بدراسة الظاهرة من حيث هي فكرة نظرية, ويجمع شواهدها, وأمثلتها من منابع اللغة, وجاء ذلك جزءًا من خدمة علم اللغة وفقهها.

أمَّا السار الثاني فقد كان جزءًا من خدمة كتاب العربية, وذلك من خلال بحث دلالاته الذي قام علم التفسير عليها, وهذا النوع كان أسبق في النشأة وبادئًا الاشكالات التي ينبت عليها مادة علوم اللغة.

وظهرت مؤلفات كان أقدمها لمفسرين كبار عنيت بجمع معاني الألفاظ التي استعملت في القرآن الكريم بمعانٍ مختلفة, وبدا كأنَّ هذه المؤلفات تجمع في المشترك اللفظي؛ ولكن تقتصر على أمثلته في القرآن, وبدا كذلك أنَّ المعول فيها كان على دلالة اللفظ في سياقه, وإنْ لم تكن تشهد لها استعمالات لغوية أُخرى خارج السياق[33] على حين لم تظهر الدلالة بل "الوجه" وأحيانًا قليلة "المعنى" وحمل أكثر هذه الكتب

عنوان "الوجوه والنظائر" الذي أصبح فيما بعد علمًا على ما يشبه أنْ يكون علمًا خاصًا بهذا النوع من الكلمات متفرعًا على علم التفسير, ومتصلًا موضوعه بعلوم العربية والقرآن[34].

فما معنى الوجوه؟ وما معنى النظائر؟

أنْ تكون الكلمة واحدة ذكرت في مواضع من القرآن على لفظ واحد وحركة واحدة وأُريد بكل مكان معنى غير الآخر؛ فلفظ كل كلمة ذكرت في موضع نظير الكلمة المذكورة في الموضع الأخر هو النظائر, وتفسير كل كلمة بمعنى غير معنى الأخر هو الوجوه.

إذنْ النظائر اسم للألفاظ, والوجوه اسم للمعاني[35].

قال صاحب الاتقان: " فَالْوُجُوهُ لِلَّفْظِ الْمُشْتَرَكِ الَّذِي يُسْتَعْمَلُ فِي عِدَّةِ مَعَانٍ كَلَفْظِ الْأُمَّةِ... وَالنَّظَائِرُ كَالْأَلْفَاظِ الْمُتَوَاطِئَةِ. وَقِيلَ: النَّظَائِرُ فِي اللَّفْظِ وَالْوُجُوهُ فِي الْمَعَانِي وَضُعِّفَ؛ لِأَنَّهُ لَوْ أُرِيدَ هَذَا لَكَانَ الْجَمْعُ فِي الْأَلْفَاظِ الْمُشْتَرَكَةِ وَهُمْ يَذْكُرُونَ فِي تِلْكَ الْكُتُبِ اللَّفْظَ الَّذِي مَعْنَاهُ وَاحِدٌ فِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ فَيَجْعَلُونَ الْوُجُوهَ نَوْعًا لِأَقْسَامٍ وَالنَّظَائِرَ نَوْعًا آخَرَ"[36].

فكل كلمة ذكرت في موضع وذكر نظيرها في موضع آخر هو ما يُعرف بـ "النظائر" أمَّا تفسير الكلمة بمعانيها المختلفة فهو ما يُعرف بـ "الوجوه"[37], قال الزركشيُّ: " وَقَدْ صَنَّفَ فِيهِ قَدِيمًا مُقَاتِلُ بْنُ سُلَيْمَانَ... فَالْوُجُوهُ اللَّفْظُ الْمُشْتَرَكُ الَّذِي يُسْتَعْمَلُ فِي عِدَّةِ مَعَانٍ كَلَفْظِ الْأُمَّةِ, وَالنَّظَائِرُ كَالْأَلْفَاظِ الْمُتَوَاطِئَةِ"[38], أو كما يقول السيوطي: "وهو ما اختلف لفظه واتحد معناه"[39], ولكن من يتتبع الكتب التي تناولت هذا الباب لا يجد فيها حديثًا عن المترادفات, فما السُّ في ذلك؟

يرى بعض الباحثين أنَّ كل مشترك لفظي يحمل في داخله ترادفًا؛ فإذا قلنا إنَّ اللسان في القرآن الكريم على أربعة أوجه فهو مشترك لفظي, وهو يملك عدة نظائر أو مترادفات فاللسان مع اللغة يكون ترادفًا, وهو مع الدعاء يكون ترادفًا ثانيًا, ومع الثناء الحسن يكون ترادفًا ثالثًا, وأمثلة أخرى ذكرها ليخلص إلى القول: "فمن أجل هذا صحَّ أنْ تحملَ هذه الكتب اسم الوجوه والنظائر مشيرة بالوجوه إلى المعاني المتعددة, وبالنظائر إلى الألفاظ المتعددة المعنى"[40].

وأيًّا كان المفهوم فالذي يعنينا هو: ما اتفق لفظه واختلف معناه الذي كان مصدر عناية العلماء, وقد خصص السيوطي للمشترك في القرآن الكريم القسم الأكبر من كتابه معترك الأقران ابتداءً من الوجه الخامس والثلاثين الذي وسمه بعنوان من وجوه اعجازه "ألفاظه المشتركة", وجعل ذلك من أنواع معجزات القرآن الكريم؛ إذْ "كانت الكلمة الواحدة تتصرف إلى عشرين وجهًا, وأكثر, وأقل, ولا يوجدُ ذلك في كلام البشر"[41], وفي الاتقان: " "لَا يَكُونُ الرَّجُلُ فَقِيهًا كُلَّ الْفِقْهِ حَتَّى يَرَى لِلْقُرْآنِ وُجُوهًا كَثِيرَةً... وَقَدْ فَسَّرَهُ بَعْضُهُمْ بِأَنَّ الْمُرَادَ أَنْ يَرَى اللَّفْظَ الْوَاحِدَ يَحْتَمِلُ مَعَانِيَ مُتَعَدِّدَةً فَيَحْمِلَهُ عَلَيْهَا إِذَا كَانَتْ غَيْرَ مُتَضَادَّةٍ وَلَا يَقْتَصِرُ بِهِ عَلَى مَعْنًى وَاحِدٍ"[42].

وحتى حملُ اللفظِ على معانٍ متضادة ذكره المفسرون بل المحققون منهم مستنيرين بـ " السياق القرآني" من دون أنْ يؤدي ذلك إلى خللٍ أو اضطرابٍ, فقد " أخرج ابن سعد من طريق عكرمة، عن ابن عباس، عن علي بن أبي طالب "عليه السلام" أنَّه أرسله إلى الخوارج، قال: اذهب إليهم وخاصمهم، ولا تخاصمهم بالقرآن، فإنه ذو وجوه، ولكن خاصمهم بالسنة"[43], فقال ابن عباس: " يا أمير المؤمنين، فأنا أعلم بكتاب الله في بيوتنا نزل قال: صدقت، ولكن القرآن حمَّال في وجوه: تقول ويقولون، ولكن حاجّهم بالسُّنن، فإنهم لن يجدوا عنها محيصاً، فاخرج إليهم فحاجهم بالسنن، فلم تبق بأيديهم حجة"[44].

يبدوا أنَّ كلام الامام عليّ "عليه السلام" أنَّ القرآن ذو وجوه أنَّه يحملُ معاني متعددة في اللفظة الواحدة, والسنة وإنْ كانت لا تخلو من هذا التوسع في المعنى ليست بمستوى القرآن الذي ليس من كلام البشر؛ وممَّا ورد في هذا الباب عن ابن عباس قال: " قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: الْقُرْآنُ ذَلُولٌ ذُو

وُجُوهٍ فَاحْمِلُوهُ عَلَى أَحْسَنِ وُجُوهِهِ"[45], وبناء على ذلك فسر القرآن واختلفت التفاسير في معاني كثير من مفردات القرآن اختلافًا لا يصلُ ـــ غالبًا ـــ إلى حد التناقض, نحو كلمة "ضيزى" التي فسرها ابن عباس بـ "الجائزة"[46], ومجاهد بـ "المنقوصة"[47], ومقاتل بـ "العوجاء"[48], وقد يكون الاختلافُ كبيرًا ولا سيَّما في أسماء الذوات نحو: "التين" التي وردت في تفسيرها أقوالٌ كثيرةٌ منها: مسجد دمشق[49], أو مسجد أصحاب الكهف[50], أو هو التين نفسه[51].

وثمرة ما نريد أنْ نصل إليه هو أنَّ لكتاب الله المجيد مزية, أو قل خصيصة تفرد بها في ألفاظه, وتراكيبه هي صفة التوسع في المعنى الذي كان سببًا في نمو التفسير القرآني مع مرور الزمن وذلك من وجوه اعجازه ولا عجب؛ فهو كلام خالق عظيم وهذه مزيةُ كلام الخالق عن كلام المخلوقين.

ثانيًا: التأليف في الوجوه والنظائر

ظهرت أولى المؤلفات في الوجوه والنظائر عند المفسرين حاملة عنوان "الوجوه والنظائر" الذي أصبح فيما بعد علمًا على ما يشبه أنْ يكون علمًا خاصًا بهذا النوع من الكلمات متفرعًا على علم التفسير, ومتصلًا موضوعه بعلوم العربية, والقرآن[52], ومن هذه المؤلفات:

- الوجوه والنظائر في القرآن الكريم: لمقاتل بن سليمان (ت 150 ه)
- الوجوه والنظائر في القرآن الكريم: لهارون بن عيسى (ت 170 ه)
- التصاريف: ليحيى بن سلام (ت 200 ه)
- تحصيل نظائر القرآن الكريم: للترمذي (ت 320 ه)
- الوجوه والنظائر لألفاظ كتاب الله العزيز: للدامغاني (ت 478 ه)

ويذكر الدكتور حاتم صالح الضامن في مقدمة تحقيقه لكتاب "الوجوه والنظائر لمقاتل بن سليمان" أنَّ ثمة أمرٌ مهم لابد أنْ نشير إليه, وهو الكتاب المنشور الموسوم بـ "الأشباه والنظائر" المنسوب إلى مقاتل بن سليمان, ولابد من الإشارة إلى ما يلي[53]:

١- سمى الناشرُ الكتاب "الأشباه والنظائر" وهو خطأٌ لم يدركه؛ فالأشباه هي النظائر, واسم الكتاب كما جاء في عنوانه, وآخره "الوجوه والنظائر".

٢- إنَّ أبا نصر مطروح بن محمد بن شاكر القضاعي المتوفى بالإسكندرية سنة (271 ه) هو راوي كتاب الوجوه والنظائر عن عبد الله بن هارون, وقد حققه الدكتور الضامن سنة 1988م[54].

ولكي يستوفي الكلام جوانبه, أو الموضوع أركانه يحسن الوقوف على أمثلة من الألفاظ التي وقعت في هذا الباب لإسقاط ما يمكن استظهاره من الأسباب التي أشار إليها عنوان هذه الدراسة.

١- شقاق: تفسير شقاق على ثلاثة وجوه[55]: فوجه منها يعني الضلال فذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ﴾[56], يعني ضلالًا طويلًا, وقوله تعالى: ﴿لِّيَجۡعَلَ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ﴾[57], الوجه الثاني: شقاق يعني الخلاف, فذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنۡ خِفۡتُمۡ شِقَاقَ بَيۡنِهِمَا﴾[58], يعني خلافٌ بينهما[59].

الوجه الثالث: شقاق يعني عداوة, فذلك قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ سمحوَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ سجى[60] يعني عاد الله ورسوله[61].

٢- الخير: تفسير الخير على ثمانية وجوه نذكر منها: الوجه الأول: الخير هو المال, فذلك قوله تعالى: ﴿إِن تَرَكَ خَيۡرًا﴾[62], يعني المال, والوجه الثاني: الخير يعني الإيمان, فذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا لَّأَسۡمَعَهُمۡ﴾[63], يعني إيمانًا؛ لأسمعهم. الوجه الثالث: الخير يعني الإسلام, فذلك في قوله تعالى: ﴿أَن يُنَزَّلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ خَيۡرٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾[64].

٣- الحرج: تفسير الحرج على ثلاثة وجوه نذكر منها: الوجه الأول: حرج يعني الشك, قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا﴾, الوجه الثاني: الحرج الضيق, قال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ... لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ﴾[65], يعني من ضيق[66].

٤- الصراط تفسير الصراط على وجهين: فوجه منهما: الصراط: يعني الطريق, قال تعالى: ﴿وَلَا تَقۡعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٖ﴾, الوجه الثاني: الصراط: الدينقال تعالى: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾[67].

الخاتمة

لقد كانت هذه دراسة موجزة في ظاهرة من الظواهر التي امتاز بها كتاب الله المجيد ألا وهي الوجوه والنظائر, وبعد تتبعها تم التوصل إلى أهم النتائج:

١- تأكد الجهد الطيب الذي بذله علماء العربية في تأصيل هذه الظاهرة, بالوقوف على طائفة من أقوالهم في هذا الباب.

٢- بيان السبب الرئيسي الذي أدَّى إلى نشوئها ممثلًا بالسياق الذي يحكم الجملة العربية.

٣- تبين لنا أنَّ الوجوه والنظائر في معناها الذي ذكر ما هو إلَّا المشترك اللفظي.

٤- ثبت لنا أنَّ كتاب الأشباه والنظائر المنسوب لمقاتل بن سليمان ما هو إلَّا كتاب الوجوه والنظائر لهارون بن عيسى.

الهوامش

1() ينظر أسرار البلاغة: الجرجاني: 3.
2() ينظر: التفسير البياني: بنت الشاطئ: 1 / 7.
3() ينظر: سياق الحال في الدرس الدلالي: د. فريد عوض: 30 – 52.
4() ينظر: النحو والدلالة: د. محمد حماسة: 98.
5() ينظر: الدلالة السياقية: د. عواطف كنوش: 45.
6() المزهر: السيوطي: 1 / 292.
7() الصاحبي: ابن فارس: 59.
8() ينظر: الدلالة السياقية: 282.
9() تصحيح الفصيح: ابن درستويه: 71.
10() علم الدلالة: د. أحمد مختار عمر: 148, 149.
11() سورة الحاقة: 24.
12() سورة يوسف: 48.
13() ينظر: اللغة: فندريس: 231.
14() ينظر: الدلالة السياقية: 287.
15() ينظر: علم الدلالة: الدكتور أحمد مختار عمر: 68.
16() ينظر: الوجوه والنظائر: سلوى العوا: 64.

17() ينظر: مناهج البحث في اللغة: الدكتور تمام حسان: 251.
18() سورة مريم: 4.
19() دلائل الاعجاز: الجرجاني:1 / 204.
20() المصدر نفسه: 1/ 46.
21() ينظر: عالم اللغة عبد القاهر الجرجاني: د. زهران البدراوي: 238.
22() ينظر: دراسات في علم اللغة, القسم الثاني: د. كمال بشر: 64.
23() ينظر: أثر السياق في مبنى التركيب ودلالته: فتحي ثابت: 79, 80.
24() ينظر: المصدر نفسه: 86
25() ينظر: البحث الدلالي عند الأصوليين. محمد يوسف: 12.
26() ينظر: علم اللغة الاجتماعي: د. كمال بشر: 66.
27() الكتاب: سيبويه: 1 / 66.
28() المصدر نفسه: 1 / 47, 48.
29() المصدر نفسه: 1 / 48.
30() ينظر: علم اللغة الاجتماعي: 87.
31() الكتاب: 1 / 80, 81.
32() ينظر: المصدر نفسه: 1 / 244.
33() ينظر: الوجوه والنظائر: سلوى العوا: 18.
34() ينظر: الوجوه والنظائر: سلوى العوا: 18.
35() ينظر: الوجوه والنظائر: مقاتل بن سليمان: 7.
36() الاتقان في علوم القرآن: السيوطي: 2 / 144.
37() ينظر: الوجوه والنظائر: لهارون: 8, و الوجوه والنظائر: للدامغاني: 17.
38() البرهان في علوم القرآن: الزركشي: 1 / 107.
39() معترك الأقران في تفسير القرآن: السيوطي: 1 / 387.
40() ينظر: علم الدلالة: أحمد مختار عمر: 149.
41() معترك الأقران: 1 / 387.
42() الاتقان: 2 / 144.
43() معترك الأقران: 1 / 388.
44() المصدر نفسه: 1 / 388.
45() سنن الدار قطني:5 / 255, رقم الحديث:4276.
46() ينظر: غريب القرآن في شعر العرب: ابن عباس: 212.
47() تفسير مجاهد: للمخزومي: 627.
48() تفسير مقاتل بن سليمان: 4 / 161.
49() ينظر: تفسير القرآن لابن وهب: ابن وهب القرشي: 2 / 162.
50() ينظر: الدر المنثور: للسيوطي: 8 / 555.
51() ينظر: الكشاف: 4 / 773.
52() ينظر: الوجوه والنظائر: سلوى العوا: 18.
53() ينظر: الوجوه والنظائر: لسليمان: 7.
54() ينظر: ميزان الاعتدال: للذهبي: 4 / 126.
55() ينظر: الوجوه والنظائر: لهارون: 66.
56() سورة البقرة: 76.
57() سورة الحج: 53.
58() سورة النساء: 35.
59() ينظر: الوجوه والنظائر: لمقاتل: 49.
60() سورة الأنفال: 13.
61() ينظر: الوجوه والنظائر: لمقاتل: 140.
62() سورة البقرة: 180

63() سورة الأنفال: 23.
64() سورة البقرة: 105.
65() سورة المائدة: 6.
66() ينظر: الوجوه والنظائر: لهارون: 140.
67() سورة الفاتحة: 6.

المصادر والمراجع
أولًا: القرآن الكريم.
ثانيًا: المصادر المطبوعة

- الاتقان في علوم القرآن, جلال الدين السيوطي, تح: محمد أبو الفضل إبراهيم, الهيئة العامة المصرية للكتب, 1974م.
- أسرار البلاغة, أبو بكر عبد القاهر الجرجاني, تح: محمود محمد شاكر, مطبعة المدني, جدة, ط:1, 1991م.
- اعجاز القرآن والبلاغة النبوية, مصطفى صادق الرافعي, راجعه الاستاذة نجوى عباس, مؤسسة المختار, القاهرة, ط1, 1423م.
- البحث الدلالي عند الأصوليين, محمد يوسف, مكتبة عالم الكتب, 1991م.
- البرهان في علوم القرآن, أبو عبد الله بن بهارد الزركشي, تح: مصطفى عبد القادر عطا, دار الكتب العلمية, بيروت, لبنان, ط1, 1988م.
- التفسير البياني للقرآن الكريم, عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ, دار المعارف, مصر, ط2, 1966م.
- تفسير القرآن, أبو محمد عبد الله بن وهب المصري القرشي, تح: ميكلوشي موراني, دار الغرب الإسلامي, ط1, 2003م.
- تفسير مجاهد, أبو الحجاج مجاهد بن جبر المكي المخزومي, تح: محمد عبد السلام أبو النيل, دار الفكر الإسلامي الحديث, مصر, ط1, 1989م.
- تصحيح الفصيح وشرحه, عبد الله بن جعفر بن محمد بن درستويه, تح: محمد بدوي المختون, المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية القاهرة, 1998م.
- دراسات في علم اللغة, الدكتور كمال بشر, دار المعارف, مصر, ط9, 1986م.
- الدر المنثور, جلال الدين السيوطي, دار الفكر بيروت.
- دلائل الاعجاز, عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني, تح: محمود محمد شاكر, مطبعة المدني بالقاهرة, دار المدني بجدة, ط3, 1992م.
- الدلالة السياقية عند اللغويين, عواطف كنوش, دار السياب, لندن, ط1, 2007م.
- سياق الحال في الدرس الدلالي, الدكتور فريد عوض حيدر, مكتبة النهضة المصرية, د.ت.
- الصَّاحبي في فقه اللغة العربية, أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا القزويني, الناشر: محمد علي بيضون, ط1, 1997م.
- عالم اللغة عبد القاهر الجرجاني, زهران البدراوي, دار المعارف, ط4, 1987م.
- علم الدلالة, الدكتور أحمد مختار عمر, عالم الكتب, القاهرة, ط6, 2006م.
- علم اللغة الاجتماعي, الدكتور كمال بشر, دار الغريب للطباعة والنشر, القاهرة, 1998م.
- غريب القرآن في شعر العرب, سؤلات نافع بن الأزرق إلى عبد الله بن عباس, عبد الله بن عباس, تح: محمد عبد الحليم, وأحمد نصر الله, مؤسسة الكتب الثقافية, ط1, 1993م.
- القاموس المحيط, مجد الدين بن يعقوب الفيروز آبادي, تح: مكتب تحقيق التراث مؤسسة الرسالة, اشراف محمد نعيم, ط8, 2005م.
- الكتاب, أبو بشر عمرو بن عثمان, الملقب سيبويه, تح: عبد السلام محمد هارون, عالم الكتب, ط3, 1983م.
- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل, أبو القاسم جار الله الزمخشري, شرحه وراجعه: يوسف حمادي, مكتبة مصر, الفجالة.
- اللغة, جوزيف فندريس, ترجمة: عبد الحميد الدواخلي, ومحمد القصاص, مطبعة البيان العربي, مكتبة الانجلو المصرية, 1950م.
- مناهج البحث في اللغة, الدكتور تمام حسان, دار الثقافة, المغرب, 1979م.
- المزهر في علوم اللغة وأنواعها, جلال الدين السيوطي, تح: أحمد جاد المولى, دار الفكر, بيروت.
- معترك الأقران في اعجاز القرآن, عبد الرحمن ابن أبي بكر جلال الدين السيوطي, تح: علي محمد البجاوي, دار الفكر العربي, مصر, 1973م.

❁ ميزان الاعتدال, شمس الدين أبو عبد الله بن عثمان الذهبي, تح: علي محمد البجاوي, دار المعرفة للطباعة والنشر, لبنان, بيروت, ط1, 1963م.
❁ النحو والدلالة, الدكتور محمد حماسة, دار الشروق, ط1, 2000م.
❁ الوجوه والنظائر, أبو عبد الله بن الحسين الدَّامغاني تح: محمد حين أبو العزم, المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية, لجنة احياء التراث, القاهرة, 2003م.
❁ الوجوه والنظائر, سلوى محمد العوا, دار الشروق, ط1, 1998م.
❁ الوجوه والنظائر, مقاتل بن سليمان, تح: حاتم صالح الضامن, مركز جمعية الماجد للثقافة والتراث, دبي, ط1, 2006م.
❁ الوجوه والنظائر, هارون بن عيسى, تح: حاتم صالح الضامن, وزارة الثقافة والإعلام, دار الحرية للطباعة, بغداد, 1989م.
ثالثًا: الأطاريح الجامعية
❁ أثر السياق في مبنى التراكيب, ودلالته –دراسة نصية من القرآن الكريم- أُطروحة دكتوراة, القاهرة جامعة المينا 1994م.